بسم الله الرحمن الرحيم

مؤسسة آل البيت الملكية للفكر الإسلامي

المؤتمر العام الرابع عشر

٢٢– ٢٥ شعبان ١٤٢٨هـ/ ٤– ٧ أيلول ٢٠٠٧م

فعالية قيم الحبّ والتّسامح والتّعايش من خلال المفاهيم القرآنية

الأستاذ الدكتور عبد العزيز بن عثمان التويجري

عمّان – المملكة الأردنيّة الهاشميّة

فعالية قيم الحب والتسامح والتعايش من خلال المفاهيم القرآنية

أ . د . عبد العزيز بن عثمان التويجري

مدخل:

في خضم صراع المفاهيم وحرب الأفكار، نلوذ بدوحة القرآن الكريم الوارفة الظّلال، لنستمدّ من تعاليمه السمحة ما يقوّي فينا إرادة البقاء والصمود وإثبات الحضور للدفاع عن مصالحنا وخصوصياتنا، في عالم سريع التقلّبات، يموج بالمتغيرات التي تمسّ جوانب كثيرة من الحياة الإنسانية في هذه المرحلة من التاريخ، فنجد في رحابها ما يثلج منّا الصدور، ويجدّد الأمل في النفوس، ويهدينا سبلَ السلام نحو الحياة الحرّة الكريمة التي تتلاقى فيها إرادات الأخيار على التصافي والتصالح والتعايش والتعاون الذي يثمر الخيرَ للبشر كافّة.

إنّ القرآن الكريم هو منبع الخير كلّه، ومصدر هداية للإنسانيّة في حاضرها ومستقبلها إلى يوم الدين، يفيض بالهدي الرباني وبالأحكام وبالتعاليم وبالتوجيهات التي تصلح أحوال الإنسان، وتهديه إلى التي هو أقوم دنيا وآخرة، وتُنير أمامه معالم الطريق نحو الحقّ والخير والفضيلة والحب والجمال، حيث طمأنينة النفس، وسكينة القلب، وراحة الضمير، واستنارة العقل.

وما من قيمة من قيم الخير والهداية والفضيلة والصلاح والعدل والسلام والحبّ الإنساني، إلاّ ولها في كتاب الله مصدر، تنبع منه، وتتشكل به، وتكتسب جوهرها بصدورها عنه. وفضائل القرآن لا تعدّ ولا تحصى، وهي دائمة العطاء، لا يغيض لها معين ولا ينفد لها زاد، يغترف منها من يشاء لإصلاح نفسه، وللارتقاء بحياته، ولإسعاد مَنْ حوله، ولخدمة الأهداف النبيلة التي تجلب المنافع للمجتمع.

والقيم المثلى في القرآن الكريم هي فضائله ومكارمه ونِعَمُ الله التي أفاضها على العالمين. وهي الهادية إلى سواء السبيل، والتي هي كلّ ما فيه الخير والهداية والسعادة للإنسانية في كل زمان ومكان. ولذلك فإنّ قيم الحب والتسامح والتعايش في الهدي القرآني، قيم سامية ثابتة خالدة، تفيض رحمة وخيراً على البشرية جمعاء،

ولا تخصّ شعباً دون آخر، ولا تقتصر على أمة دون أخرى، لأنّ فضل الله يعمّ الجميع، والله ذو فضل عظيم.

١) في معاني الحب:

الحبّ والمحبّة: ميل النّفس إلى ما تراه أو تظنه خيراً. وحبّ الله لعباده: هو رضاه عنهم، ويتبعه إحسانه إليهم ومثوبتهم، وعدم الحبّ هنا هو العقاب وعدم الرضا.

ومحبّة العبد لربّه: تعظيم الله وطلبُ الزّلفى لديه، والتقرّب إليه بطاعته[١].

والحبّ هو عبارة عن ميل الطبع إلى الشيء الملذ، فإذا تأكّد الميل وقوي يسمّى عشقاً، والعشق مقرون بالشهوة والحب مجرّد عنها. وأول مراتب الحب: الهوى، وهو ميل النفس، وقد يطلق ويراد به نفس المحبوب، ثم العلاقة، وهي الحب اللازم للقلب، وسميت علاقة لتعلّق القلب بالمحبوب[٢].

والحب عند العرب منازل ومراتب متعدّدة، وأول مراتبه الهوى، وهو الميل إلى المحبوب، ويليه الشوق، وهو نزوع المحبّ إلى لقائه، ثم الحنين، وهو شوق ممزوج برقة، ويليه الحب وهو أول الألفة، ثم الشغف، وهو التمني الدائم لرؤية المحبوب، ويليه الغرام، وهو التعلّق بالمحبوب تعلقاً لا يستطيع المحبّ الخلاصَ منه، ثم العشق، وهو إفراط في الحبّ، ويغلب أن يلتقي فيه المحب والمحبوب، ثم التتيم، وهو استعباد المحبوب للمحب، ويليه الهيام، وهو شدّة الحب حتى يكاد يسلب المحبَّ عقله[٣].

والحب: الوداد. وعند الفلاسفة: ميل إلى الأشخاص أو الأشياء العزيزة، أو الجذابة أو النافعة. وتحابوا أحبَّ بعضُهم بعضاً. وفي الحديث: "تهادوا تحابوا"[٤].

---

[١] معجم ألفاظ القرآن الكريم، الجزء ٢، الصفحة ٥٢، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، ١٩٩٦م.

[٢] كتاب الكليات: معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، لأبي البقاء الكفوي، الصفحة ٣٩٧، تحقيق د. عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٩٢م.

[٣] الحب العذري عند العرب، للدكتور شوقي ضيف، الصفحة ١٤، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٩م.

[٤] المعجم الوسيط، الجزء الأول، الصفحة ١٥٠، مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

ويذهب ابن حزم في كتابه (طوق الحمامة في الألفة والألاف) إلى أن الحب (اتصالٌ بين أجزاء النفوس المقسومة في هذه الخلقة في أصل نشأة عنصرها الرفيع) . فالنفوس الإنسانية ترجع في أصل نشأتها إلى نفس عليا واحدة توزّعت أجزاؤها في نفوس الناس . ويقول إنّ هذه الأجزاء تتصل فيكون الحب، وتنفصل فيكون البغض، فسِرّ الحب والبغض في المخلوقات إنما هو في الاتصال والانفصال بين النفوس[١] .

ويعدّ كتاب (الزّهرة)[٢] لأبي محمد بن داود الأصفهاني أوّل مؤلّف مستقل في دراسة الحبّ، والحبّ عنده نوع من التعلّق الرّوحاني، وهو سلوك عقلي تأملي روحي نفسي يهدي الإنسان للسمو بعاطفته إلى المستوى الروحي .

أمّا أبو الحسن الديلمي فقد ربط في كتابه (عطف الألف المألوف على اللام المعطوف)[٣] بين الحبيبين، ورأى أنّ النفوس التي لم تتهيّأ لقبول الحبّ البشري الطبيعي، لا تستطيع الوصول إلى الحب الصوفي الإلهي . فالذين وصلوا إلى محبّة الله هم القادرون على محبّة الآخرين[٤] .

والمعنى الذي نقصد إليه هنا تحديداً، هو حب الله لعباده، الذي هو رضاه سبحانه وتعالى عنهم، ومحبّة العبد لربّه، الذي هو تعظيم الله وطلب الزلفى إليه والتقرّب إليه بأعمال الطاعات . فحبّ الله لعباده هو رحمة منه بهم . فالله هو الرحمن الرحيم . ولذلك فإنّ الحب من الرّحمة، وإشاعة الحب بين الناس من شأن أن يجعلهم رحماء فيما بينهم . فالحبّ مشاع للكافّة والرحمة مبذولة للجميع . وهذا هو المعنى العميق الذي ينطوي عليه المفهوم القرآني للحبّ ذو الأفق الإنساني الرحب .

[١] نقلاً عن (الحب العذري عند العرب) للدكتور شوقي ضيف، الصفحة ١٣ .

[٢] طبع ما وجد من الكتاب لأول مرة برعاية المعهد الشرقي في جامعة شيكاغو سنة ١٩٣٢، بعناية د . لويس نيكل والشاعر إبراهيم طوقان .

[٣] صدرت طبعة جديدة من الكتاب في السنة الحالية ٢٠٠٧ عن دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، بتحقيق حسن الشافعي وجوزيف نورمان .

[٤] الموسوعة العربية، المجلد الثامن، ص٢١، هيئة الموسوعة العربية، دمشق، ٢٠٠٣م .

٢) تأصيل مفهوم الحب في القرآن الكريم:

وردت لفظة (الحبّ) في القرآن الكريم خمساً وعشرين مرّة بصيغ مختلفة وفي مواقع متعدّدة.

والحبّ في القرآن الكريم يكتسي معاني كثيرة تتفاوت حسب سياق الآيات، منها قوله تعالى في محكم تنزيله: ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ ﴾ [آل عمران: ٣١]. ويقول ابن كثير في تفسير هذه الآية: (أي يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبّتكم إيّاه، وهو محبّته إياكم، وهو أعظم من الأول) [١]. كما قال بعض الحكماء: ليس الشأن أن نُحِب، إنما الشأن أن نُحَبّ. وحب الإنسان لخالقه سبحانه، يكون باتباع هديه. وفي تفسيره لهذه الآية الكريمة يقول الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي: (إنّ فيها وجوب محبة الله، وعلاماتها، ونتيجتها، وثمراتها) [٢]. ولـمّا كان الإسلام هو رسالة جميع الأنبياء والرسل ختمها الله تعالى بالرّسالة المحمديّة، فإنّ اتّباع ما جاء به رسول الله محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام، يُوجب حبَّ الله للعبد. وبهذا المعنى يكون الإسلام دين الحبّ بالمفهوم القرآني الشّامل، وبالمدلول الإنساني المتعارف عليه أيضاً. والله تعالى هو الرحيم الودود: ﴿ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ﴾ [هود: ٩٠].

ويقول محمد الطاهر ابن عاشور في تفسيره لهذه الآية: (ومن آثار المحبة تطلُّبُ القرب من المحبوب والاتصال به واجتناب فراقه، ومن آثارها محبة ما يسرّه ويرضيه، واجتناب ما يغضبه، فتعليق لزوم اتباع الرسول على محبة الله تعالى، لأنّ الرسول دعا إلى ما يأمر الله به وإلى إفراد الوجهة إليه، وذلك كمال المحبة) [٣].

ومن جانب آخر، نجد في القرآن الكريم أنّ الرحمة ترتبط بالمغفرة على نحو يعمّق مفهوم الحبّ والمودّة، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ﴾ [البروج: ١٤]. والإيمان والعمل الصالح يجلبان الرحمة والودّ. يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴾ [مريم: ٩٦]. والودّ: خالص

[١] تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، المجلد ٢، الصفحة ٣٢، طبعة دار طيبة للنشر والتوزيع، ٢٠٠٠م.

[٢] تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لعبد الرحمن بن ناصر السعدي، المجلد ١، الصفحة ١٢٩، مؤسسة الرسالة، بيروت ٢٠٠٠م.

[٣] تفسير التحرير والتنوير، لمحمد الطاهر ابن عاشور، الجزء ٣ الصفحة ٢٢٥، الدار التونسية للنشر، تونس ١٩٨٤م.

المحبّة، وهو من الحب بمنزلة الرأفة من الرحمة. وهذه القاعدة القرآنية هي الأساس في تعامل المسلم مع المجتمع الذي يعيش فيه، ومع الأسرة الإنسانية جمعاء. يقول المولى عزّ وجلّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات: ١٣]. والتعارف في المفهوم القرآني، يقوم على أساس راسخ من المودّة والحب، ويُفضي إلى التسامح والتعايش. فالتعارف بهذا المفهوم الراقي والمدلول السامي، هو الغاية من خلق الله النّاس أجمعين، وهو الحكمة الرّبانية من وراء الخلق، لأنّ الله خلق النّاس ليتعارفوا، أي ليتبادلوا المصالح والمنافع، وليقتربوا من بعضهم بعضاً، ولتسود بينهم المودّة والحب. ولا يتم هذا إلاّ بعبادة الله تعالى حق العبادة، أي بالإيمان به والعمل بتعاليمه، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

ويتأصّل مفهوم حبّ الخير للناس، حتى الأعداء منهم في قوله تعالى: ﴿ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ﴾ [فصلت: ٣٤]. كما يتعمّق هذا المفهوم القرآني للحب بين بني البشر في قوله تعالى: ﴿ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴾ [الممتحنة: ٨]. والبرّ والقسط من ثمرات الحب. وفي سورة البقرة الآية ١٩٥ ﴿ إِن ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾، وفي الآية ٢٢٢ منها قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ ﴾ ﴿ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ﴾. وفي الآية السادسة والسبعين من سورة آل عمران، يقول تعالى: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾. وحبّ الله لعباده هو رضاه سبحانه وتعالى عنهم.

وهذا المفهوم المتأصل العميق من المفاهيم القرآنية، يؤكّد بصورة واضحة أنّ الحب قيمة مشاعة مبذولة بين جميع الخلق، استناداً إلى أنّ التعارف – الذي هو الغاية من الخلق مصداقاً لقوله تعالى – مطلوب ومرغوب فيه لحكمة أرادها الله. وهو الأمر الذي يترتب عليه إشاعة قيم التسامح والتعايش بين البشر جميعاً.

وتلك هي البذرة الطيبة التي تثمر التسامح بين الناس، وتؤتي أكلها أمناً وسلاماً يسودان المجتمعات الإنسانية بصورة عامة.

٣) التسامح في المفهوم القرآني:

التسامح فضيلة من الفضائل السامية، وقيمة من القيم الإسلامية المستمدة أساساً من القرآن الكريم. وينفرد الجرجاني صاحب كتاب "التعريفات" بإيراد معنى عميق الدلالة رحب المضمون للسماحة، وهو (بذل ما لا يجب تفضّلاً)[١]. ولعلّ هذا المعنى هو أقرب ما يكون إلى الكرم والجود. ونلاحظ ابتداءً أن الجرجاني دقيق في تعريفه السماحة من غيره، لنزوعه كما نعلم، إلى التعمق في المفردات والنظر إليها من زاوية أشمل، هي إلى الفلسفة أقرب منها إلى اللغة.

وقد اكتسب مصدر (السماحة) في هذا العصر معنى هو أقرب إلى التسهيل بما يعني عدم تعقيد الأمور وجعلها سهلة ليّنة. وللتسهيل معنيان؛ أولهما إيجابي، وثانيهما سلبي. ونحن نقصد بطبيعة الحال، المعنى الإيجابي الذي هو نقيض التفريط والإخلال بالواجب. وبذلك يكون معنى سماحة الإسلام، أو الشريعة السمحاء، هو التسهيل في الأحكام والتكاليف الشرعية، ومراعاة مقتضيات الفطرة الإنسانية، وتخفيف الأعباء عن كاهل الإنسان وعدم تكليفه ما لا يطيق، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. ويقوله عز من قائل: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ ﴾ [الأعراف: ٤٢].

ونحن إذا جمعنا هذه المعاني جميعاً، نصل إلى المعنى العام للسماحة الذي نقصد إليه، وهو المعنى الوافي بالقصد في هذا السياق. وفي ضوء ذلك تكون سماحة الإسلام، وهي رحابة مبادئه، وسعة شريعته، ونزوعه إلى اللين واليسر، وتلبيته لنداء الفطرة، واستجابته لمتطلباتها في وسطية واعتدال، وفي سماحة وسعة.

لقد اشتملت مبادىء الإسلام على منهج للحياة ملائم للإنسان في كل أطواره وظروفه، فيه الرحمة بالإنسان، وفيه هدايته إلى ما فيه الخير والصلاح والقوّة والمناعة ضد كل ما يفسد الفطرة ويضرّ بالجسد والروح،

[١] كتاب التعريفات لعلي بن محمد الشريف الجرجاني، الصفحة ١٣٧. أما (التسامح) بهذا اللفظ، فهو عند الجرجاني بمعنى (أن لا يعلم الغرض من الكلام ويحتاج في فهمه إلى تقديم لفظ آخر). وهو معنى بعيد عن مفهوم المصطلح المعاصر – مكتبة لبنان، ١٩٩٠م، بيروت.

وفيه ما يحقق له سكينة الضمير وراحة العقل وطمأنينة النفس، ويضمن له السعادة في الدارين، ويكفل الأمن والاستقرار والسلام على المستويات كافة.

ورحمة الإسلام بالإنسان من حيث هو إنسان، إنما تأتي من وسطيته، ومن سماحته، ومن عدالته، ومن تكريمه للإنسان، ومن تأكيده على مبدإ الأخوة والإنسانية النابعة من وحدة الأصل، فمبادىء الإسلام كلّها رحمة وسماحة وعدالة ومساواة وإخاء بين البشر جميعاً، والله سبحانه وتعالى خلق الخلق وسخّر لهم ما في الكون وبعث فيهم الرّسل والأنبياء، وجعل رسوله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم آخر أنبيائه ورسله مثالاً للسماحة وعنواناً للوسطية وميزاناً للعدالة، والرحمة المهداة إلى الإنسانية، إلى أن تقوم الساعة.

وإذا كان مصطلح (التسامح) كما نفهمه اليوم، لم يرد بهذه الصيغة في القرآن الكريم، إلاّ أنه ورد في الحديث الشريف، قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "المؤمن سَمْحٌ إذا باع، سَمْحٌ إذا اشترى، سَمْحٌ إذا خاصم". ولذلك فإنّ التسامح على وزن التفاعل يعني (تبادل السماح)، بين طرفين، مثلها مثل مصطلح (التضامن)، أي: (تبادل الضمان): أضمنك وتضمنني، فيكون بيننا تضامن. كذلك هو التسامح (تبادل السماح): أسمح عنك وتسمح عني، فيكون بيننا تسامح.

وتلك جميعُها معانٍ قرآنية سامية، ومفاهيم إسلامية أصيلة، ومبادىء ثابتة تصلح أن تكون أساساً للقانون الدولي في مجال العلاقات الدولية والتعاون الدولي لما فيه الخير والأمن والسلام للإنسانية جمعاء.

٤) التسامح في الوثائق الدولية:

في الاصطلاح الحديث، التسامح هو الاحترام والقبول والتقدير للتنوّع الثري لثقافات عالمنا ولأشكال التعبير وللصفات الإنسانية لدينا. ويتعزّز هذا التسامح بالمعرفة والانفتاح والاتصال وحرية الفكر والضمير والمعتقد. إنه الوئام في سياق الاختلاف. وهو ليس واجباً أخلاقياً فحسب، وإنما هو واجب سياسي وقانوني أيضاً. والتسامح، وهو الفضيلة التي تيسّر قيام السلام، يسهم في إحلال ثقافة العدل والسلام محل ثقافة الحرب. وهذه المعاني جميعاً هي من صميم دلالات المفهوم القرآني للتسامح وللودّ وللحب الإنساني.

ولقد جاء هذا التعريف في (إعلان مبادىء بشأن التسامح) الذي اعتمده المؤتمر العام لليونسكو في سنة ١٩٩٥، الذي يوضّح أنّ التسامح لا يعني المساومة أو التنازل أو التساهل، بل التسامح هو قبل كل شيء، اتخاذ موقف إيجابي فيه إقرار بحق الآخرين في التمتع بحقوق الإنسان وحرياته الأساسية المعترف بها عالمياً . ولا يجوز بأي حال الاحتجاج بالتسامح لتبرير المساس بهذه القيم الأساسية والتسامح ممارسة ينبغي أن يأخذ بها الأفراد والجماعات والدول .

والتسامح إلى ذلك كلّه، هو مسؤولية تشكّل عماد حقوق الإنسان والتعددية (بما في ذلك التعددية الثقافية) والديمقراطية وحكم القانون، وهو ينطوي على نبذ الدوغماتية، والاستبدادية، ويثبّت المعايير التي تنصّ عليها المواثيق الدولية الخاصة بحقوق الإنسان .

كما جاء في (إعلان مبادىء بشأن التسامح) أنّ التسامح لا يتعارَضُ مع احترام حقوق الإنسان، ولذلك فهي لا تعني تقبّل الظلم الاجتماعي أو تخلّي المرء عن معتقداته أو التهاون بشأنها . بل تعني أنّ المرء حرّ في التمسّك بمعتقداته وأنه يقبل أن يتمسك الآخرون بمعتقداتهم . والتسامح يعني الإقرار بأنّ البشر المختلفين بطبعهم في مظهرهم وأوضاعهم ولغاتهم وسلوكهم وقيمهم، لهم الحق في العيش بسلام وفي أن يطابق مظهرهم مخبرهم، وهي تعني أيضاً أنّ آراء الفرد لا ينبغي أن تفرض على الغير[١] .

وكل هذه المفاهيم والمعاني الواردة في المواثيق الدولية، تتفق في العمق والجوهر، مع المفهوم القرآني للتسامح وللتعايش وللتعاون لما فيه الخير للبشر أجمعين . بل يمكن القول إنّ الإنسانية لم تعرف التسامح بهذا المعنى الإنساني العميق والشامل والرحب، إلاّ في ظل الحضارة الإسلامية .

٥) التعايش في المفهوم القرآني:

إنّ التعايش بين الأديان والثقافات والحضارات هو المدلول العملي للدعوة القرآنية إلى (التعارف) . وهو إلى ذلك ضرورة من ضرورات الحياة، تستجيب للدواعي الملحّة لقاعدة جلب المنافع ودرء المفاسد، وتلبّي

[١] على طريق تحالف الحضارات، للدكتور عبد العزيز بن عثمان التويجري، الصفحتان، ١٤٦– ١٤٧، تحت الطبع .

نداء الفطرة الإنسانية السويّة للعيش في أمن وسلام وطمأنينة، حتى ينصرف الإنسان في دعة وسكينة، إلى تعمير الأرض، بالمعنى الحضاري والإنساني الواسع لهذا التعمير.

ويحضّ القرآن الكريم على التعايش بين الأمم والشعوب على قاعدة الأخوة الإنسانية، ومن منطلق العدل والتسامح. يقول الله تعالى: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة: ٨] – ويقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠].

فالتعايش هو اتفاق الطرفين على تنظيم وسائل العيش – أي الحياة – فيما بينهما وفق قاعدة يحدّدانها، وتمهيد السبل المؤدية إليه، إذ إنّ هناك فارقاً بين أن يعيش الإنسان مع نفسه، وبين أن يتعايش مع غيره، ففي الحالة الأخيرة يقرّر المرء أن يدخل في عملية تبادُليّة مع طرف ثان، أو مع أطراف أخرى، تقوم على التوافق حول مصالح، أو أهداف، أو ضرورات مشتركة.

ولا يخرج مفهوم التعايش بين الأديان والثقافات والحضارات، عن هذا الإطار العام، بأية حال من الأحوال، وإلّا فقدَ خصوصياته، وانحرف عن غاياته، وهذا ما يحتّم وجود قاعدة ثابتة يقوم عليها التعايش بين الأديان والثقافات والحضارات. وهو أمر له صلة وثيقة برسالة كلِّ دين من هذه الأمم، وبالمبادىء التي يقوم عليها، وبالقيم والمثل التي يدعو إليها.

٦) رسالة الإسلام في عالم اليوم:

من هذا المنطلق، ومن خلال هذه المفاهيم القرآنية، وبهذه الرؤية الإنسانية الشمولية، ننظر اليوم إلى رسالة الإسلام في عالم شديد التقلّبات كثير المتغيّرات محفوف بالتحديات على شتى المستويات. ويتحمّل المسلمون المسؤولية في تبليغ هذه الرسالة إلى الشعوب والأمم كافة، بادئين بأنفسهم، لإصلاح أحوالهم وتوفيق أوضاعهم وتطوير مجتمعاتهم وحلّ مشكلاتهم وتسوية خلافاتهم والنهوض ببلدانهم، بمقتضى هذه المفاهيم القرآنية. فالعالم لن يأبه لهم، ولن يصغي إليهم، ما لم يغيّروا ما بأنفسهم، بالمنهج القرآني الحكيم المستلهم من

توجيهات القرآن الكريم. فلا معنى إذن لأن نعيد ونكرّر أنّ الإسلام دين التسامح والحب والمودّة، بينما نحن غارقون في الخلافات والنزاعات والعداوات وفيما لا يحصى من المشاكل الناتجة في مجملها عن عدم تفهمنا لمعاني القرآن الكريم، وعدم سلوكنا المنهج القرآني السمح في إصلاح أحوالنا وإدارة شؤوننا وتسوية مشكلاتنا.

إنّ تفعيل قيم التسامح والتعايش على الصعيد الداخلي، هو البداية الصحيحة لإقناع العالم بأن للإسلام رسالة حضارية إنسانية، وبأنّ العالم الإسلامي مؤهل لدعم حركة تجديد الحضارة الإنسانية من خلال تطعيمها بالقيم المثلى والمبادىء السامية المستوحاة من المفاهيم القرآنية. فلقد مضى علينا زمن طويل ونحن نردد بألسنتنا ونكتب بأقلامنا في داخل العالم الإسلامي وخارجه، أن الإسلام دين التسامح، وأن التسامح والتعايش قيمتان إسلاميتان، في حين أن مجتمعاتنا تعاني من (صراع طائفي)، ومن (نزاع مذهبي)، ومن تفرقة على أساس الانتماء الديني، ومن (اشتباك ثقافي) نتيجة لشيوع أفكار ومفاهيم تتعارض مع قيم التسامح والتعايش تعارضاً تاماً.

إننا نتلو قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١٠]. وهذا فضل من الله وصفة ثابتة للمسلمين. ولا نبذل الجهد المطلوب للعمل بمقتضى هذه الآية الكريمة. والأخوة هنا هي الأخوة في الدين، وفي الإنسانية، وفي المصير المشترك. ويمكن لنا أن نقرأ الآية الثانية والستين من سورة البقرة من هذا المنظور وبهذا الفهم لنتوسع في مفهوم الأخوة الإنسانية الإيمانية، يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾. وبذلك يتأكد المفهوم القرآني للتسامح في أرقى درجاته.

وتلك هي رسالة النخب الفكرية والثقافية والقيادات الدينية والإعلامية في العالم الإسلامي، أن ينهضوا بالمهمة الحضارية الملحة التي تتطلب الشجاعة الأدبية والجسارة العقلية وقوة الإرادة وسلامة القصد، لإحداث التغيير المنشود الذي نفضل أن نطلق عليه (تجديد البناء الحضاري) للعالم الإسلامي على قاعدة التسامح والتعايش والحب.